حضارات الباليوليتي الأوسط:

ب- الحضارة العاترية :

العاترية هي حضارة محلية أُكتشف موقعها الرئيسي في وادي الجبانة بمنطقة بئر العاتر قرب تبسة، وهي تتميز بأدواتها الحجرية ذات العنق، وقد امتدت زمنيا بين45 ألف سنة و20 ألف سنة، ولم يتم التعرف على هذه الحضارة منذ البداية فقد كان يُعتقد أنها بقايا تعود للموستيرية، لكن بفضل اكتشاف موقع "بئر الجبانة" القريب من بئر العاتر بتبسة، تبين للباحثين أن الأمر يتعلق بحضارة مختلفة عن الموستيرية، وقد تم الاعتراف بها في مؤتمر ما قبل التاريخ في "مونبولي" بفرنسا 1922، واعتبرت سابقة زمنيا للحضارة السوليتيرية الأوربية. ومع ذلك ظل الجدال قائما حولها حيث أعتبرها بعض الباحثين مرحلة حديثة من الموستيرية وقد اعتبرت العاترية في طنجة المغربية جزء من السوليتيرية الأوربية[1]، فقد أظهرت البقايا الموجودة في مغارة العالية شبها بأدوات هذه الحضارة .

ومن المفترض أن العاترية قد غطت جزءاً كبيرا من الباليوليتي الأوسط، وأناس الحضارة العاترية من الممكن أنهم ظهروا منذ حوالي 80ألف سنة وفق ما يذكر الكثير من الباحثين ، ولكن ساد جدال بين الباحثين حول الانتقال من الموستيرية إلى العاترية، ورغم أنه اصطلح على تمييز العاترية عن الموستيرية بالأدوات ذات الساق، وكان كامبس قد حدد بدايتها بحوالي 40ألف سنة في شمال إفريقيا، ولعلها كانت متزامنة مع العديد من الحضارات الأوربية كحضارة "شتال بيريني" (Châtelperronien)[2]

---

[1] السوليتيرية من حضارات الباليوليتي الأعلى ظهرت في جنوب غرب إسبانيا وفي البرتغال في 20ألف قبل الحاضر، ثم بشكل متأخر ظهرت في فرنسا.

[2] حضارة شتال بريني Châtelperronien تنتشر هذه الحضارة في جنوب غرب فرنسا والجبال الوسطى في إسبانيا بالإضافة إلى شمال إسبانيا، ووسط أوروبا بما فيها إيطاليا، تحمل هذه الحضارة بعض الملامح الموستيرية ، تؤرخ هذه الحضارة بين 38.000 و33.000 قبل الحاضر.

والحضارة "الأورغناسية" (Aurignacien) و"الغرافيتية" (Gravettien)[3]، و"البروغوردية وربما كانت نهايتها متزامنة مع بداية السوليتيرية الأوربية .

وقد تميزت بكثرة الشظايا والنصال مع وجود تقنية لافلوازية في مرحلتها القديمة، ووجود أدوات ذات الساق والتي تزداد أكثر في المراحل المتطورة، ومن بين أدواتها رؤوس السهام الخشنة والنصال الكبيرة والمتوسطة التي أصبحت أكثر دقة في المرحلة المتطورة، وقد أطلق موريس ريقاس تسمية "العاترية" في سنة 1922 على مختلف البقايا الحجرية المزودة بساق، ولكن ج . تيكسي(j. Tixier) اعتقد أنها مرحلة من الموستيرية تميزت بتقنية التقصيب اللافلوازية التي تُمَكن من صنع نصال ومكاشط وأدوات مختلفة مزودة بساق منها رؤوس سهام كبيرة، لكن فيما بعد تم الإقرار بأن هذه الحضارة منفصلة عن الموستيرية.

وقد انتشرت في رقعة جغرافية واسعة حيث شملت شمال إفريقيا وامتدت إلى الصحراء، كما وُجدت في مصر والسودان وإثيوبيا والصومال وفي غرب واد النيل وقيل بأنها امتدت إلى جنوب إفريقيا، وامتدت أيضا إلى الشرق فقد ظهرت مواقعها في فلسطين وفي شبه الجزيرة العربية، وإلى جانت اتجاهها شرقا نحو شبه الجزيرة العربية وفلسطين اتجهت غربا إلى المحيط الأطلسي، واجتازت الصحراء لتصل لمنطقة الساحل حيث سجلت في العديد من المناطق مثل التينيري شمال النيجر والإينيدي بتشاد.

وبالنسبة للإنسان صانع هذه الحضارة فهو بلا شك الإنسان العاقل وقد عثر على بقايا العضوية في الكثير من المواقع بصفة خاصة في المغرب الأقصى حيث عثر على بقاياه في كهف دار السلطان 2 وفي كهف الزهرة بالحرحورة وفي كهف تِمارة، ومغارة العالية قرب طنجة وفي موقع الصخيرات قرب الرباط، كما عُثر على بقايا عضوية للعاترية في مصر في نزلة الخاطر بمصر العليا.

---

[3] الغرافيتيةGravettien : كانت هذه الحضارة بين 29 ألف و 19 ألف سنة قبل الميلاد انتشرت في كامل أنحاء أوروبا ، وقد أصبحت الأدوات الحجرية والعظمية فيها خفيفة وأكثر دقة وتطورا.

وفيما يخص أصولها ذكر "تومسن" (C Tompson) أن أصلها من الشرق مثل بقية الحضارات الإنسانية، غير أن الكثير من الباحثين يعارضون هذا الرأي على رأسهم ليونال بالو الذي يرى أنها أصيلة في المنطقة. ورغم أن مواقع هذه الحضارة منتشرة في رقعة واسعة من شمال إفريقيا والصحراء إلا أن الفترة التي انتقلت فيها إلى الصحراء كانت محل جدالٍ بين الباحثين، فقد ذكر جون فابر(Jean Fabre)أن مواقعها الصحراوية متأخرة قليلا عن الشمال الإفريقي، وذلك لوجود فترة جافة كانت تمر بها الصحراء في البلايستوسين الأعلى تم تسجيلها في بحيرة تشاد الجنوبية بين 50.000 و40.000 قبل الحاضر.

وفي المقابل جمعت تواريخ قديمة في منطقة فزان مما يطرح فرضية أصولها الصحراوية، وإذا كانت العاترية قديمة في الصحراء فهي متأخرة [4] في المغرب الأقصى حيث تعود إلى 28 ألف قبل الحاضر في موقع دار السلطان في الدار البيضاء وإلى 30400 قبل الحاضر في موقع تافوغالت

وقد مرت هذه الحضارة بثلاثة مراحل هي:

أما العاترية القديمة فأغلب مواقعها موجودة قرب ساحل البحر المتوسط وهي قريبة من الحضارة الموستيرية ومن مواقعها في المغرب الحنك ودار السلطان، عين الجماعة، وفي الجزائر: الخروبة، أرزيو، وكدية بوغرارة، وعلى باشا، وفي تونس رقبة بلقاسم والرأس الأسود والمونستر، وقد وجد في مواقعها بقايا للتقنية اللافلوازية مما جعل الباحث كامبس يعتقد أن العاترية ولدت من رحم الموستيرية، وتقل في هذه المرحلة الأدوات ذات الساق، أما نوع الحجارة فهي من الكوارتزيت والحجارة البركانية والجيرية ونسبة قليلة من الصوان، ومن المرجح أن الأدوات الموستيرية ضلت موجودة في هذه المرحلة بشكل كبير خاصة الأوتاد المثقوبة والحجارة ذات الوجهين.

أما العاترية النموذجية تقع معظم مواقعها في الجزائر وهي تحتوي أدواتها على النصال ذات العنق، ومن مواقعها "وادي الجبانة" ببئر العاتر و"وادي جوف"، و"بئر

[4] مسألة تأخر المواقع الحضارية في سواحل المغرب الأقصى طرحت أيضا في الحضارة الإيبرومغربية.

الشعشاع" بالشرق الجزائري، وفي هذه المرحلة ضلت التقنية اللافلوازية موجودة مع كثرة النصال، والمكاشط، والأدوات ذات الساق المشذبة من الوجهين.

وتتميز العاترية العليا بوجود نسبة قليلة من الصوان مع وجود أدوات ذات وجهين، وقد وصلت العاترية في هذه المرحلة إلى المغرب الأقصى، ومن مواقعها: طنجة، تيت مليل، المغارة العليا، دار السلطان، عين تاكيليت، كما امتدت إلى الصحراء ويحتمل أنها تواصلت في بعض المناطق من الصحراء الجنوبية إلى غاية النيوليتي.

1- العاتريون في الصحراء:

اتجه العاتريون نحو الطاسيلي والهوقار في فترة مبكرة، أما الصحراء الجنوبية ومنطقة الساحل الحالية فاتجهوا إليها بعد حلول الجفاف في الصحراء في حوالي 20ألف قبل الحاضر، وقد اختلف الباحثون في الزمن الذي انتقل فيه العاتريون إلى الصحراء إذ يرى هنري هوجو أنهم انتقلوا إلى الصحراء من الجنوب القسنطيني في حوالى 30الف سنة، وقد توزعوا في الصحراء الشمالية أولا ثم الوسطى ومنطقة الساورة ثم الصحراء الغربية، وخلال المرحلة الثانية من العاترية استقروا في الشطوط والبحيرات الداخلية الصحراوية حيث وجدت أدواتهم في المستويات السفلى .

وقد ترك العاتريون الكثير من أدواتهم وبقاياهم في المواقع الصحراوية ومن بينها: تين هناكتن وتيورين(Tiouririne) ، ويعتبر موقع تيوريين (Tiouririne)القريب من تيهوداين من المواقع الهامة، إذ يتميز بحجمه الكبير حيث تصل مساحته إلى كيلومتر مربع واحد تقريبا، وإلى جانب تلك المواقع وجدت آثار للعاترية في الإيميدر (Immidîr) و"منيت" (Méniet)اللذان قام بالبحث فيهما "هنري هوجو"، أما في "التيديكلت" فنجد آثارهم في موقع كبير بوادي "أسريول"(Asrioul) حيث تتواجد الآثار ضمن مساحة واسعة تمتد لعدة كيلومترات، وتتواجد البقايا العاترية بقوة في وادي الساورة، وعرق آدمر، وتيهوداين (tihoudaine) ، وأدرار بوس بالنيجر.

ومن بين مواقعها في الهوقار موقع "أهنات" وهو من المواقع الأولى الذي قام بدراستها الباحث أرامبورغ .(Aramborg C)، أما موقع "تيديكلت" فقد تمت دراسته

من طرف هوجو (Hugot H G)وهو يقع في عين صالح، ومن المواقع الصحراوية أيضا وادي الساورة و تبلبالة أيضا، وتتميز الصناعة الصحراوية بنسبة كبيرة من الكوارتز بينما يقل فيها استعمال حجر الصوان، وتميزت أيضا بكثرة السهام والأزاميل والأدوات المثلثية الشكل.

وهناك دراسات حديثة أظهرت وجود العاترية في تادرارت أكاكوس المحاذية للطاسيلي، فقد وجدت هذه الأثار في كهفي "وان تابو" (uan tabou)و"وان أفودا" uan (afuda)، وفي كهف هوافتيح (Haua Fteah) في ليبيا أعطت البقايا العضوية تواريخ قديمة جدا فقد أرخت في حدود 45000±3200 ق.م. كما جمعت تواريخ قديمة في الصحراء أيضا حيث أرخت مواقع وادي الساورة وفزان بما بين 45.000 و35.000، أما مواقع العاترية النهائية فالتواريخ المسجلة فيها تعود إلى ما بين 16.000 و14.000 في الطبقة العلوية من وادي الساورة.

ومن الناحية المناخية يمكن القول أن المناخ كان رطباً في معظم الفترات التي شغلتها الحضارة العاترية وهي تتناسب مع البلايستوسين الأعلى في أوروبا، وقد تزامنت تلك الفترة مع انتشار كبير للأنهار والبحيرات في أنحاء الصحراء، ففي فزان تم تسجيل ظهور بحيرات صغيرة في حوالي40.000 و 26000 سنة قبل الحاضر، وسجل وجود بحيرات في شمال النيجر بين 26.000 و 20.000 قبل الحاضر، وعلى العموم الفترة ما بين 38 ألف و19ألف سنة قبل الحاضر كانت رطبة في كامل الصحراء وهي تتناسب مع العاترية.

وفي الفترة التي شغلتها الحضارة العاترية كانت أوروبا لا تزال تحت رحمة العصر الجليدي الأخير "الفورم"، الذي شهد أيضا فترات ما بين جليدية انحصر فيها الجليد، حيث تم التعرف على ثلاثة فترات في عصر الفورم الجليدي وهذه الفترات امتد فيها الجليد بشكل كبير وتخللتها فترات ذات مناخ مناسب .

أما بخصوص الفترة التي انتهت بها العاترية فقد كان المناخ فيها جافا وقاسيا وقد بلغ الجفاف ذروته في 18.000 ألف سنة قبل الحاضر وهو ما يتزامن مع المرحلة

النهائية لجليدية "الفورم" التي كانت قوية، فقد انخفض مستوى البحر فيها وارتفعت درجات الحرارة وتوسعت الكثبان الرملية نحو الجنوب، مما يعني وجود صحراء قاسية أكبر من الصحراء الحالية، إذ تم تسجيلها في مواقع تمتد من السنغال إلى وادي النيل وتأثرت بها حتى مجاري الأنهار الرئيسية كوادي النيل.

ويعتقد بيار رنون أن الكثبان الرملية وصلت إلى الصحراء الجنوبية أي إلى الأراضي الواقعة بين 10°و12° شمالا واستمرت لعدة آلاف من السنين ويرى هذا الباحث أنها قد بدأت في الانحصار تدريجيا ابتداءً من 10500 ق.م، ولكن من الصعب قبول ما ذهب إليه الباحث رنون حول قوة المرحلة الجافة الأخيرة، نظرا لوجود بعض الدلائل على انقطاع هذا الجفاف بفترات رطبة، وهذه الدلائل تتعلق أيضا بالعاترية النهائية .

2- نهاية العاترية :

لقد ثار جدال كبير حول نهاية العاترية فرغم أن الكثير من الباحثين يعتقدون أن الجفاف هو المسئول عن نهاية هذه الحضارة في الصحراء إلا أن هناك اختلاف حول شدته ومدته وفيما إذا كانت الصحراء خالية تماما من السكان في ذلك الوقت .

وقد ذكر الباحثون أن تلك الفترة الجافة بدأت وفق معظم الأقوال في حوالي 20 الف قبل الحاضر، وقد اعتقد كل من روبار فارني (R VERNET) وجينات أوماسيب، وهنري هوجو (H HUGOT)وغابريل كامبس(CAMPS)أن المنطقة كانت شبه خالية من السكان بين 20ألف و10 ألاف سنة، ولكن بعض الباحثين أكدوا أن ذلك غير صحيح وان الجفاف لم يدم طويلا .

ولكن ما يهمنا نحن في هذا الأمر كله هو مصيرُ العاتريين، فالمعروف أن منطقة الساحل الحالية كانت بمنأى عن الجفاف الذي أصاب عموم الصحراء، ومن الممكن أنّ العاتريين قد التجأوا إلى تلك الأنحاء بسبب قساوة المناخ، ومن المرجح أن بعض البحيرات بقيت صامدة هناك، والكثير من الباحثين يساندون وجهة النظر هذه مثل مليكة حشيد وباربارا باريش وثياري تيلي(thierrey Tillet)، إذ يقول هؤلاء أن الجفاف

الذي حدث في حوالي 20ألف سنة قد أدى إلى زوال العاترية وانتقال العاتريون إلى مناطق أخرى هامشية مثل الصحراء الجنوبية أو إلى شمال إفريقيا أو إلى وادي الساورة.

ومن جهة ثانية استمرت العاترية في الصحراء الجنوبية والساحل إلى ما بعد 20 ألف سنة وفق ما يذكر الباحث تيلي (th Tillet)الذي اكتشف بقاياها في أدرار بوس في التينيري بالنيجر وأرخه ب 16000ق.م، كما أن الباحثة جينات أوماسيب تعتقد أيضا أن العاترية استمرت إلى الإيبي باليوليتيl'épipaléolithique (العصر الحجري القديم المتأخر) وذلك نظرا لوجود بقاياها في وادي الساورة في طبقة تؤرخ ب14350 قبل الحاضر.

وما يرجح صمود العاتريين في الصحراء الجنوبية وفي بعض المناطق من الصحراء الوسطى هو معطيات مناخية أكدت أن المرحلة المناخية الجافة لم تكن بتلك القوة التي توصف بها فقد انقطعت في حوالي17000 قبل الحاضر بفترة رطبة سجلت في التيبستي.

وهناك بعد الأدلة التي تدعم ذلك إذ أن بقايا بشرية وجدت في العديد من مواقع الصحراء الجنوبية خاصة في سهل التينيري والآير خلال العصر الحجري القديم المتأخر ، وكذلك في وادي الساورة وجبال الأكاكوس وفي تين هناكتن وأمكني في الهلوسان المبكر، تدل كلها على انقطاع المرحلة الجافة وأنها لم تدم طويلا، ومن الدلائل الأخرى أيضا وجود بقايا عاترية في كهف تمارا (Temara) في المغرب في فترة تعود إلى 12.000 قبل الحاضر، كما يبدوا أن العاترية في الساورة صمدت إلى فترة متأخرة.

ومن جهة ثانية سجل تحول مناخي في حوالي 14.000 قبل الحاضر في بلاد المغرب نتج عنه امتداد الإيبرومغربية جنوبا، كما سُجل التحول المناخي أيضا في جبال التيبستى في حوالي 16.000 قبل الحاضر. وبغض النظر عن الرطوبة التي سجلت في بعض المناطق الهامشية من الصحراء الوسطى، فإن عَالمُ المناخ "جون ميلي" قد أكد أن المناطق المرتفعة من الصحراء كانت قد شهدت ظروفا مناخية مغايرة

لتلك التي شهدتها المناطق المنخفضة وذلك بين 20 ألف و12500 قبل الحاضر، وهذا يعني بالطبع أن مناطق الطاسيلي والهوڤار كانت أفضل من بقية الصحراء من حيث المناخ.

كما أن مرحلة حضارية في الهلوسان المبكر قد شهدتها الصحراء وسماها الباحثون الإيطاليون باسم "الأكاكوس المبكر"، وهي مرحلة تبدأ مع بداية الهلوسان وزوال الجفاف العاتري في حوالي 8000 ق.م، وفي تلك الفترة عاش الصيادون الجامعون وصيادو الأسماك في مناطق الطاسيلي والأكاكوس والهوڤار، وهؤلاء السكان يمكن اعتبارهم من مجموعات العصر الحجري القديم المتأخر، وهم قد عاشوا في بيئة رطبة تضمنت عدة حيوانات من بينها الخراف البرية التي كانوا يصطادونها، كما اهتدوا إلى اكتشاف الفخار في 7000 ق.م في "وادي التانزوفت" بالأكاكوس.

إلى جانب تلك الأدلة نذكر أيضا معطيات مناخية جمعت من أكثر من مصدر قد أكدت وجود ظروف رطبة في كل من حوض الساورة وفي الصحراء الجنوبية وجبال التيبستي، وكذلك وجود مركز حضاري مهم في الصحراء الجنوبية هو "موقع غوبرو" (Gobero) في التينيري شمال النيجر الذي أعطى ما يزيد عن 200 جثة إنسانية، منها ما يعود إلى نهاية البلايستوسين، وبعض تلك الجثث تعود إلى الهلوسان المبكر بين7700 –6200 ق.م والهلوسان الأوسط بين 5200–2500 ق.م.

وبالاعتماد على كل تلك المعطيات يمكن القول أن المناخ بين 20.000 و10.000 قبل الحاضر لم يكن جافاً بشكل كامل بل تخللته فترات رطبة، فقد قسم "جون ميلي" هذه الفترة إلى قسمين، فالفترة بين 20 ألف و 15500 قبل الحاضر شهدت مناخ مختلفا عن الفترة بين 15500 و 12500 قبل الحاضر.

وبغض النظر عن ما أصاب الصحراء من جفاف بعد الحضارة العاترية، فإن منطقة الهوڤار والطاسيلي ضلت تتمتع بأفضلية مناخية بسبب ارتفاعها وموقعها الجغرافي، بالاضافة إلى أن هذه المنطقة كانت تحصل على تأثيرات مناخية قادمة إليها من المناطق الاستوائية، وهو ما يجعلنا نرجح أن أناس الحضارة العاترية ربما

يكونوا قد صمدوا هناك إلى بداية الهلوسان، وقد شكل وجودهم هناك قاعدة حضارية سمحت بظهور مراكز ثقافية في البلايستوسين النهائي والهلوسان المبكر.